Türkiye Diyanet Vakfı

دار القرآن الكريم
مدرسة آية الله العظمى الگلپايگاني
مدظله الوارف

رسائل
الشريف المرتضى

٤٣٦/١٠٤٤

ابو القاسم علي بن الحسين بن موسى

المجموعة الأولى

(تقديم واشراف)
السيد احمد الحسيني

(اعداد)
السيد مهدي رجائي

* رسائل الشريف المرتضى ـ ١
* تأليف : الشريف المرتضى
* تقديم : السيد أحمد الحسيني
* اعداد : السيد مهدى الرجائى
* نشر: دارالقرآن الكريم ـ قم
* طبع : مطبعة سيد الشهداء ـ قم
* التاريخ : ١٤٠٥هـ
* العدد : (٢٠٠٠) نسخة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين ، واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين .

تقديم

بقلم : السيد أحمد الحسيني

(١)

كان الشريف المرتضى مجموعة متزاحمة من الثقافات والمعارف الاسلامية والعربية العالية ، فان له آثاراً ممتازة في التفسير والكلام والعقائد والفقه وأصوله والادب والشعر والجدل وغيرها من العلوم والفنون الدارجة في عصره . دون هذه المعلومات في كتب خاصة أو بحث عنها استطراداً أوفي ضمن جواباته على المسائل التي كانت ترد اليه من مختلف البلدان والشخصيات المرموقة .

وعلى دارس الشريف المرتضى أن يتحدث عنه في شتى المجالات الثقافية والجوانب العلمية ، وعليه أيضاً أن يكون في مستوى علمي رفيع ملماً بجوانب كثيرة من شتى العلوم الاسلامية .. لكي يتسنى له دراسة المرتضى وتحليل ما خلف من الثروات العظيمة في عالم العلم والدين .

أما أنا فأعترف أنني لست ممن تتوفر فيه المؤهلات الكافية للدخول في هذا الميدان الوسيع ، ولست أملك هاتيك الطاقات التي تفتح لي آفاق التحدث عن هذا الطود الشامخ .. ولكن كل هذا لايمنعني من أن ألقي دلوي في الدلاء

بالقدر الذي أجد من الفسحة في الوقت والمجال للتحدث .

(٢)

في هذه الكلمة القصيرة التي نقدم بها مجموعة «رسائل الشريف المرتضى» الى القراء الافاضل ، نكتفي بنظرة عابرة في أربع جوانب من معارفه ، هي : الجانب الكلامي ، والجانب الفقهي ، والجانب الاصولي ، والجانب الادبي .

أما دراسة المرتضى بالشكل المبسط ومن كل النواحي ، فتلك من وظائف كبار العلماء الذين تتوفر فيهم الثقافات ويجدون الفرصة الكافية لمثل هذه الاعمال:

١ ـ خصص الشريف المرتضى كتابيه « الذخيرة » و « الشافي » بالكلام وكتب في « الامالي » و« الفصول المختارة » و« تنزيه الانبياء » ورسائله وجواباته فصولا طويلة وممتعة في الكلام دلت على قوته الكلامية وشدة صلاته الوثيقة بآراء المتكلمين المتقدمين عليه والمعاصرين له ، ولعل كتابيه «الشافي» و« الذخيرة» من أحسن كتبه الكلامية و أطولها ، بل لعلهما من أوقع الكتب الكلامية الشيعية القديمة وأرسخها ، وفيهما حقاً طرق بعض الابحاث الكلامية وتوسع فيها توسعاً لم يسبق اليه مع عمق في البحث ، واشراق في العبارة ، واكثار من الشواهد القرآنية والحديثية ، وجمع للاراء ، واحتواء للنظريات .

وكان تلميذاً للشيخ ابي عبدالله محمد بن محمد بن النعمان المفيد الذي قيل فيه: كان « من جملة متكلمي الامامية ، انتهت اليه رياسة الامامية في وقته ، وكان مقدماً في العلم وصناعة الكلام» [١] وهو الذي «فضله أشهر من أن يوصف في الفقه والكلام والرواية»[٢] .

وأستاذ مثل الشيخ المفيد الذي طبق العالم شهرة في الكلام والفقه وغيرهما من العلوم لابد وأن يربي مثل المرتضى الذي كان « امام أئمة العراق بين الاختلاف

(١) الطوسي: الفهرست ١٥٨ .

(٢) النجاشي: الرجال ٣١١ .

والأتفاق ، اليه فزع علمائها وعنه أخذ علماؤها ، صاحب مدارسها ، وجماع شاردها وآنسها ، ممن سارت أخباره ، وعرفت به أشعاره ، وحمدت في دين الله مأثوره وآثاره ، الى تواليفه في الدين ، وتصانيفه في أحكام المسلمين ، مايشهد أنه فرع ذلك الاصل الاصيل ، ومن أهل ذلك البيت الجليل»[١] .

والذي « كان نصير الدين الطوسي اذا جرى ذكره في دروسه يقول : صلوات الله عليه ، ويلتفت الى القضاة والمدرسين الحاضرين ويقول: كيف لا يصلى على السيد المرتضى »[٢] .

والمرتضى ككلامي شيعي يبحث من زاويته الخاصة كان شديد الانتصار للاراء الشيعية: يذب عنها بمأوتي من حول وطول ، ويدافع عنها بكل قواه ، ولا يدع ما يمكن الاستدلال به الا جعله شاهداً يقيمه لدعم مذهبه وتقوية معتقده .

والغريب أن يعدّ الشريف المرتضى معتزلياً لمناصرته بعض مايذهب اليه المعتزلة ، والاغرب أن يعدّ التشيع متفرعاً من الاعتزال لوجود الشبه الكبير بينهما وتشابكهما في بعض الاراء الكلامية تشابكاً قوياً .. .

ان هذا لغريب حقاً ، وكأن القائل بهذا القول لم يقف على الاراء ولم يبحثها ، واذا كان بحث فيها كان يجد أن « أسس الامامية أسبق من أسس المعتزلة لان الاعتزال مذهب جديد حصل في زمن واصل بن عطاء في القرن الثاني للهجرة وخالف في ذلك أستاذه الحسن البصري واعتزل درسه . أمّا الامامية فيعتمدون في مذهبهم على أئمة أهل البيت ويستندون الى أحاديثهم وأحاديث جدهم رسول الله ﷺ الغارس لبذرة التشيّع والموضح لخططه وآثاره ،

(١) صدر الدين الشيرازي عن ابن بسام: الدرجات الرفيعة ٤٥٩ .

(٢) الخوانساري: روضات الجنات ٣٠٣/٤ .

وفي زمن امير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام تركزت دعائمه ووضحت معالمه وظهرت خصائصه وكثر متبعوه ومعتنقوه ، ولم يزل أئمة أهل البيت يتعاهدونه واحداً بعد واحد بالرعاية والعناية ويكشفون دقائقه وينشرون أعلامه وأحكامه . . . واختلاف الشيعة انما يكون بسبب تفاوت أفهام العلماء في الاستخراج والاستنباط ـ في الامور الاستنباطية ـ وبحسب اختلاف الانظار والافكار ـ في الامور العقلية . ومن الطبيعي أن هذا الرأي قد يوافق غيرهم وقد يخالفهم ، وليس معنى الموافقة أن يكونوا منهم . على أنّا لو قلنا بأن الاعتزال تشيع من بعض الجهات لكان أقرب الى الصواب، حيث أن المتأخر يصح أن ينسب الى المتقدم ولايصح العكس . اذن فمن الخطأ أن نقول : التشيع منحى من مناحي الاعتزال...»[1] .

وبعد هذا فهل يصح أن يقال ان المرتضى معتزلي وهو الذي كتب كتابه (الشافي) في ردكبير المعتزلة في عصره القاضي عبدالجبار ؟؟

أو هل يصح أن يقال ان الشريف يناصر مذهب الاعتزال وهو الذي يقول في بعض كتاباته رداً على المعتزلة « ويمكن أن يقال للمعتزلة خاصة» [2] ؟

ان المرتضى يتصدى لمناقشة آراء المعتزلة كمايفعل بآراء غيرهم من ذوي الاراء الكلامية من سائر الفرق الاسلامية ، وهي لديه على حد سواء في قبول النقاش والاخذ والرد، ولايرى بينها وبين الاراء الشيعية من صلة توجب عليه قبولها أومناصرتها .

* * *

٢ ـ أما الجانب الثاني الذي يلزم التحدث عنه في هذه العجالة ، فهو الجانب الفقهي للمرتضى :

(١) الحيدري: مع الدكتور محيي الدين ١٦ .

(٢) رسائل المرتضى ١/ ٢٥ ط النجف .

كان ـ رحمه الله ـ قمة شامخة من قمم الفقه الجعفري وفي طليعة الذين كانت لهم مساعي كبيرة في تطوير الفقه واخضاعه للقواعد الاصولية في طريق الاستنباط، في حين كان قبله في اطار حديثي غير مركوز على أسس الاستدلال والتعمق الاصولي .

كان المرتضى يذهب الى عدم صحة العمل بأخبار الاحاد، وكتب في ذلك رسالة يقيم على مايذهب اليه الادلة ويدفع مايستدل به خصومه . بالاضافة الى ماكتبه في كتابه « الذريعة » وبعض جواباته من التنديد بالعاملين بأخبار الاحاد .

وعلى ضوء هذا الرأي كان كثير العمل بالقواعد الاصولية التي لابد لمثله من الاخذ بها في مجابهة المسائل الفقهية وكان قبله موضوع أخذ القواعد الاصولية بعين الاعتبار في الفقه مما لم تأنس أذهان الفقهاء به حينذاك ، فكانوا يرون في هذا خروجاً على عرفهم العام وطريقتهم في عملية الاستنباط، الا أن هذه الطريقة أصبحت مأنوسة لهم فيما بعد المرتضى وخاصة في زمن الشيخ محمد بن الحسن الطوسي المتوفى بالنجف الاشرف سنة ٤٦٠ هـ ، اذ كان للطوسي قوة عظيمة في تطوير الفقه تطويراً كاملا وتركيزه على القواعد الاصولية ، ولعل « كتاب المبسوط كان محاولة ناجحة وعظيمة في مقاييس التطور العلمي لنقل البحث الفقهي من نطاقه الضيق المحدود في أصول المسائل الى نطاق واسع يمارس الفقيه فيه التفريع والتفصيل والمقارنة بين الاحكام وتطبيق القواعد العامة ويتتبع أحكام مختلف الحوادث والفروض على ضوء المعطيات المباشرة للنصوص» [1] .

وعلى كل حال فقد كان المرتضى « أعرف الناس بالكتاب والسنة ووجوه التأويل في الايات والروايات ، لما سد باب العمل بأخبار الاحاد اضطر الى

(١) محمدباقر الصدر: المعالم الجديدة للاصول ٦٠ .